الوعي النقدي وإشكالية المرجعية اللغوية في شعر الحداثة
مجموعة "الأوائل" لأدونيس أنموذجًا

سامي عبابنة *

ملخص

يدرس هذا البحث إشكالية المرجعية اللغوية في شعر أدونيس الذي يعد واحدًا من النماذج البارزة في شعر الحداثة، فيبحث في علاقة الدال بما يحيل إليه، ويربط هذه الإشكالية بالوعي النقدي والمعرفي الذي يمتلكه أدونيس في كتاباته التنظيرية عن الكتابة الشعرية مما أثر في لغته الشعرية، وقد أظهر البحث هذه الإشكالية في أطر ثلاثة هي: البحث اللساني والبحث الفلسفي والبحث النقدي، ثم اهتم بإظهار الوعي النقدي لطبيعة العلاقة بين الدال وما يحيل إليه في آراء أدونيس عن الكتابة الشعرية، ومن ثمّ جرى تحليل أبعاد هذه الإشكالية في مجموعته الشعرية "الأوائل"، في محاولة جادة للكشف عن فعالية الشعر في اللغة في بعض نصوص المجموعة، وكيف يعمل الشعر على خلخلة العلاقة بين الدوال ومرجعياتها في هذه النصوص.

مقدمة:

لا شك أن الإحساس بأهمية اللغة في الشعر لا يأتي من كونها وسيطًا يعبر الشاعر من خلاله عن رؤيته، ولكنها – في حقيقة الأمر – تمثل رؤية الشاعر وفكره، ومن ثمّ فإن نظرة الشاعر إلى اللغة تتعدى كونها وسيطًا بينه وبين العالم، ولا شك أن الاقتراب من رؤيته وفكره، خاصة في شعر الحداثة، يقتضي – بشكل أو بآخر- معرفة رؤيته ووعيه المعرفي والنقدي باللغة، وتحديد علاقته بها، وعلاقتها بالواقع كما يراها الشاعر. وهذه المعرفة تغدو ضرورية لبناء كفاية أدبية (Literary Competence)[1] صحيحة تمكن القارئ من قراءة النصوص الشعرية بما يمكنه من كشف فكر الشاعر ورؤيته.

وإذا كانت اللغة تشعر بأنها تقارب بين الإنسان والعالم، وتهدم الفجوة التي تفصله عنه، فإن الشاعر ينظر إلى اللغة على أنها هي العالم، وكما أن نظرته إلى العالم من حوله مميزة ومختلفة، كذلك تصبح نظرته إلى اللغة مختلفة ومميزة، هذا التميز يظهر بما تحيل إليه اللغة الشعرية، إذ يلحظ - غالبًا – أن لغة الشعر لا تحيل إلى الواقع والأشياء في العالم بشكل مباشر، وهذه

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2010.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جدارا، إربد، الأردن.

اللامباشرة هي ما يمكن التعبير عنه بـ "إشكالية المرجعية في اللغة الشعرية"، التي يتميز بها شعر الحداثة على نحو خاص.

ولمّا كان مسعى البحث مرتبطًا بتأسيس طريقة في قراءة شعر الحداثة، فقد كان من الضروري إيضاح الأسس المعرفية والنقدية في اللسانيات والفلسفة والنقد التي أسست لمقولة "إشكالية المرجعية" (referential problematic). ثم إيضاح صلة هذا النوع من التفكير بشعراء الحداثة، وبشكل خاص أدونيس، وذلك بمتابعة أبرز آرائه النقدية التي تظهر فهمه لعلاقته باللغة والأشياء، وصلة هذه الأفكار بالتصورات التي قدمت عن اللغة وفلسفتها كما تظهر غالبًا في مفهومه عن الكتابة الشعرية، ويأتي اختيار أدونيس أنموذجًا لبحث هذه الإشكالية لأنه قدم جهدًا نقديًا واسعًا، وامتازت لغته الشعرية بصعوبة تحديد ما تحيل إليه، وهو ما يتيح المجال للكشف عن أثر الوعي النقدي في ظهور هذه الإشكالية في اللغة الشعرية، فضلاً عن أن أدونيس قد شكل أفقًا خاصًا تبعه فيه كثير من الشعراء العرب المعاصرين، ثم سيكشف عن أثر هذه الإشكالية في مجموعة أدونيس "الأوائل"، حيث تتضح رؤيته لإشكالية العلاقة بين الإنسان واللغة من جهة، وبين الإنسان والأشياء من جهة أخرى، وهو ما دفع أدونيس وغيره من شعراء الحداثة إلى تجاوز علاقات الإحالة والمرجعية المعتادة في اللغة إلى إحالات مرجعية أخرى نصية أو ثقافية أو أسطورية أو غيرها. وهو ما يعني في المحصلة النهائية أن العلاقة بين الخطاب الشعري والواقع هي علاقة جدلية.

الأسس المعرفية والنقدية لإشكالية المرجعية:

لقد تشكل شعر الحداثة عند العرب في العصر الحديث في أفق معرفي وثقافي مشبع بمجالات معرفية شتى، وكان من أبرز ما أثر في الشعراء ولغتهم التصورات المعرفية والنقدية التي جاءت حصيلة طبيعية للسانيات الحديثة والفلسفة الحديثة ونظرية الأدب، ولا بدّ على إثر ذلك من امتلاك القارئ لهذه المعرفة حتى يتمكن من فهم الآلية التي تشكلت على أساسها اللغة الشعرية.

أولاً: إشكالية المرجعية في إطار البحث اللساني:

تنظر معظم تصورات اللسانيات الحديثة إلى اللغة على أنها لا تشكل منجزًا للذات الإنسانية الفردية، وقد تبلورت هذه الفكرة في التفرقة التي باتت معهودة تمامًا بعد أن طرحها فرديناند دي سوسير (F. D. Saussure) بين اللغة والكلام فهو يقول: "إن اللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد"[(2)]، فهذه النظرة تحصر المسألة تمامًا في اللغة ذاتها، لتصبح اللغة عبارة عن نسق أو نظام (system) مكتمل قبل الاستخدام الفردي لها (أي الكلام)، وهذا النظام يبدو من خلال قول سوسير منفصلاً تمامًا عن أي معطى واقعي، وهذا ما جُسد – أيضًا - في فهم سوسير للعلامة اللغوية التي تقوم

على طرفي الدال والمدلول، إذ يرى أن النظام اللغوي "هو سلسلة من الفروق الصوتية ترتبط بسلسلة من الفروق في الأفكار"[3]، ويتضح من قول سوسير مدى تهميش الواقع أو المرجعية الواقعية في حديثه عن العلامة اللغوية، فالدال بحسب هذا التصور يحيل إلى الأفكار في الذهن بدرجة أولى وأساسية. والدال اللغوي – كما يقول سوسير– "لا يتكون من مادة صوتية ولا يتكون من أية مادة بل من الفروق التي تميز الصورة الصوتية لهذا الدال عن غيره"[4]، وهذا يؤكد أنه ينظر إلى "اللغة على أنها شكل وليست مادة، فما دامت العلامة اللغوية تقوم على ثنائية الدال (الصورة الصوتية) والمدلول (الفكرة) وأن العلاقة الجامعة بينهما هي علاقة اعتباطية فإن اللغة تعتمد على نسق الصوت في الكلمة الذي يتكون من أصوات متمايزة ليس لها علاقة بحد ذاتها بالمدلول، فقيمتها ليست في مادة الصوت الذي تتكون منه وإنما في العلاقة بين الأصوات التي تقوم أساسًا على الفروق"[5].

لقد أثرت هذه التصورات على البحث اللساني المعاصر، وخاصة في اللسانيات البنيوية بشكل واضح، حتى باتت معالجة العلامة اللغوية أو اللغة منحصرة تمامًا في جانبي البنية والدلالة، وقلما تم تجاوز ذلك للحديث عن الواقع الذي ينبغي للغة أن تكون على صلة مباشرة به، لكنها ليست كذلك في واقع الأمر، فاللغة ترتكز على نظامها الذاتي المنبثق من مقولاتها التصورية، والكلام لن يكون، وفق هذا التصور، سوى نقل ذلك النظام إلى حيز التطبيق، ومن ثمّ ستصبح اللغة ومقولاتها هي المسؤولة عن القول (والكلام)، وهي ستقوم بالدور الأساسي في تشكيل المعنى، وعلى أساس ذلك فإنه سيتم إهمال أي حديث عن الواقع أو عن إحالة اللغة إلى الواقع من خلال المرجعية الواقعية التي ينبغي أن تكون موجودة في التصور الخاص عن العلامة اللغوية، لا منحصرة في طرفي الدال والمدلول، لذلك فالعلاقة بينهما هي اعتباطية (arbitrariness)، والدليل اللغوي، كما يقول جورج مونان (G. Mounin): "اعتباطي، ومعنى هذا، لا أن كل متكلم يستطيع أن يستعمله أو حتى يبتكره على هواه لكن أن العلاقة بين داله ومدلوله علاقة حادثة اصطلاحية صرفًا (تمامًا)، دون أن يُذكّر الواحد بالآخر تذكيرًا طبيعيًا شَبَهِيًا"[6]. وقد فهم من القول بثنائية اللغة والكلام واعتباطية العلامة اللغوية أن اللغة ذات وجود سابق على الذات التي تتكلمها، وأن أعراف اللغة هي التي تخول المتكلم ليقول ما يقوله، وهي التي تمنح السامع القدرة على فك شفرة الكلام المقال، وبهذا تكون اللغة قد عملت على تغييب الذات الإنسانية، لأن المعنى، والحالة هذه، محمول اللغة لا الكلام، وهذا ما عبر عنه في الفكر البنيوي بمقولة "سجن اللغة"[7].

إن كل ذلك يعني أن البحث اللساني البنيوي يرى في اللغة نظامًا مدهشًا مكتملاً لا يحتاج إلى موضوعية العالم الخارجي ومنطقه، فهو نظام مكتفٍ ذاتيًا، وهذا ما أدى إلى عدم الاهتمام بالمرجعية الواقعية، لكن حالات الاستخدام المختلفة والمتعددة للغة في الكلام قد جعلت من إحالة

الدوال في اللغة إلى الأشياء كما لو أنه أمر بديهي في بعض الحالات التي يبنى فيها التواصل اللغوي على الحدس كما يحدث في البيئات اللغوية المتماثلة، ولكن حتى في مثل هذه الحالات التي يظن فيها الناس أنهم يستخدمون حقيقة التعبيرات اللغوية (بطرق مختلفة) لتحيل إلى الأشياء "متبنّين وجهات النظر التي توفرها هذه التعبيرات. فهناك ظروف يمكن فيها أن تكون بعض النتائج المعينة التي تستخلص عادة ملائمة،...، في تحديد الأشياء التي أُحيل إليها؛ كما أن هناك بعض الظروف الأخرى التي لا يتحقق فيها ذلك"[8]، فعلى الرغم من تشابه معطيات الواقع لدى الأشخاص المنتمين إلى بيئات لغوية متماثلة، فإن كلاً منهم يتعامل مع الواقع وفق تجربة ذهنية ذاتية، وهي متمايزة ومتنوعة، فالمعلومات التي تحملها اللغة مصوغة بالطريقة التي ينظم بها الذهن التجربة، وعلى أساس ذلك، "فإن هذه المعلومات المتجلية في تعابير البنية التصورية لا يمكن أن تحيل على العالم الواقعي،... وإنما على عالم مسقط ناتج عن هذه البنية ووليد التنظيم الذهني"[9].

ولعل تجاوز هذا البعد في البحث اللساني يفيد بأن مسألة الإحالة التي تشكل أساس إشكالية المرجعية، والتي تجسد في المحصلة النهائية العلاقة الجدلية بين أي خطاب لغوي والواقع تظهر لا على أساس أنها مشكلة لغوية، أو على أحسن تقدير لا يتم التفكير فيها على أنها كذلك، حيث إن منطق الاستعمال اللغوي يفرض علاقة بديهية بين الدوال ومدلولاتها وما تحيل إليه في الواقع، لكنها تبقى نظرة سطحية، في حين تعمق النظرة الفلسفية بحث هذه الإشكالية لأن الفلسفة تتجاوز باستمرار الظاهر والبديهي.

ثانيًا: إشكالية المرجعية في إطار البحث الفلسفي:

تظهر اهتمامات الفلاسفة باللغة باعتبارها قدرة أو "استعدادًا يتوفر عليه الإنسان بالقوة"[10]، ولذلك فإن البحث في اللغة هو بحث في الطبيعة الوجودية للإنسان ومدركاته التي حملتها اللغة على الدوام. كما تشكل اللغة جزءًا أساسيًا في تصورات الفلاسفة عن المنطق كما هو معروف تمامًا، ومن هذا المنطلق يأتي الاهتمام باللغة من خلال الاهتمام بالعلاقات الوجودية، فالأشياء الواقعية لا تبرز كأشياء إلا بعد أن يتم الوعي بها (أو تعقل) لتصبح مضامين ذهنية، لكنها لا تعقل إلا من خلال اللغة. ولما كانت اللغة هي تعبيرًا عن التجربة الإنسانية التي تشكل فيها الحالة الشعورية أساسًا أوليًا، وهي تجربة متغيرة ومتجددة وغير ثابتة تمامًا ثبوت الأشياء، فهي حتمًا لا يمكن أن تقدم معرفة بالأشياء ثابتة ويقينية، وتصبح علاقة اللغة بالأشياء في وضع إشكالي حيث ستحيل اللغة – بحسب هذا التصور – إلى التجربة الإنسانية المتبلورة في الذهن، وهذا يعني في التصورات الفلسفية أن الأشياء تصبح جزءًا من التجربة الشعورية[11]، لأن الواقع "ليس معطى سلفًا وببساطة، ويؤدي قصور أدوات البحث إلى القول بأن الغاية من معرفته تظل

بعيدة المنال على الدوام إلى ما لا نهاية"[12]، ولذلك فقد أصبحت الحاجة ملحة إلى مفهوم العلامة اللغوية، فالتجربة الإنسانية – في المحصلة النهائية – "تكتفي بتقديم العلامات التي تدفع التفكير إلى التساؤل عن مصدرها الأصلي"[13]، وهكذا فالتعرف إلى العالم في هذه الفلسفات يتم من خلال عملية فحص العلامات.

إن هذا يعني أن صلة اللغة بالعالم والأشياء تتم من خلال طرف وسيط هو الذهن البشري، حيث تولد الصورة الذهنية عن الشيء قبل أن تدخل دائرة اللغة، والصورة الذهنية هذه هي ما تقيم علاقة الإحالة التي تؤسس مرجعية الكلمة بين اللغة والأشياء، وهي ذات طبيعة افتراضية، لأن ما تحيل إليه اللغة هو تصورات أقيمت من خلال اللغة ذاتها، وليس بالضرورة أن تحيل اللغة إلى الأشياء، وعلى هذا الأساس فكل لغة تحتوي على نسيج المفاهيم في كليته، وهو ما يجعل صلة اللغة بالفكر لا بالواقع، فحقيقة الأمر أن الدوال لا تشير إلى الأشياء لكنها تصور الأشياء، والكلمات لا تشير إلى الوقائع ولكنها تصور الوقائع.

لقد أوصلت هذه التصورات إلى الاهتمام باللغة باعتبارها تقوم بعملية تمثيل (presentation) الأشياء في الواقع، وقد أخذت هذه المسألة أبعادًا جمة في البحث الفلسفي، فقد ميز برنتانو (Brentano) بين ثلاثة أشياء:

1. يوجد شيء معين (ش).
2. يوجد متمثل (م) يتمثل الشيء (ش).
3. يوجد شيء موضوع تمثل، ويتمثله شخص متمثل (م)، ما دام الشيء الذي يتمثله الشخص (م) غير موجود في الواقع خارج الشخص المتمثل[14].

ويؤدي هذا التمييز إلى التفريق بين الوجود الفيزيائي للشيء والوجود الذهني له، وما يحدث هو أن اللغة تعمل على استحضار الوجود الذهني.

لقد دفع مثل هذا الاهتمام الفلسفة إلى التفكير بالعلاقات التي تثيرها اللغة باعتبارها ممثلة للوعي الإنساني، ومن ثم فإن بحث حقيقة الكينونة للأشياء لا تحصر إلا من خلال اللغة، فالإحساس بوجود الفجوة بين الإنسان والأشياء دفع إلى الاهتمام فيما إذا كانت اللغة تستطيع أن تجعل الإنسان قادرًا على تجاوز هذه الفجوة، وهو ما أثار الحديث عن المرجعية والإحالة اللغوية إلى الأشياء وكيف تتم، فقد ميز هوسرل (Husserl) بين: فعل الإحالة ومضمون فعل الإحالة وموضوع فعل الإحالة، حيث "ينظر إلى مضمون الفعل نظرة منطقية تصبح فيها الصورة وسطًا معيشًا يقع بين فعل الإحالة والمرجع الموضوعي. والاختلاف القائم بين المضمون والمرجع اختلاف منطقي يمس طبيعة فعل الإحالة"[15]. ويتضح ذلك من قول جوتلوب فريجه (Gottlob

Frage): "إن كل رمز يقابله معنى معين، وكل معنى يقابله مرجع معروف ومحدد، بينما يكون مرجع واحد (شيء واحد مشار إليه) له ما شئت من الرموز"[16]، فعبارتان مثل: "نجم المساء" و"نجم الصباح" لهما مرجع واحد هو نجم الجوزاء[17]، أما معناهما فمختلف.

ويتحدث هوسرل عن الفرق – وفقًا لذلك – بين فعل التمثل وفعل العني، فالتمثل هو استحضار الموضوع، أما العني فهو فعل تلقائي يدرك فيه "شيئية الشيء ذاته، دون أن يضطر الشيء إلى الحضور داخل التمثل عن طريق استدعاء قناة حسية مخصوصة"[18].

كما تظهر بعض التصورات الفلسفية مدى التباين بين ثلاث حالات لعلاقة الإحالة والعني:

1- حالة الحياد: بأن يكون للعبارة مرجعية تحيل إليها، ولا تبالي فيما إذا كانت تعني شيئًا أو لا تعنيه إطلاقًا، مثل عبارة: "تبدأ هذه العبارة بحرف العين"، فعلى الرغم من أنها تحيل إلى مرجعية محددة، إلا أنه لا فرق بين إن كانت تبدأ بحرف العين أو الغين أو غيرهما.

2- حالة اللامعنى: وذلك إذا كانت العبارة خالية من المعنى، كأن تتركب العبارة من مجموعة دوال لا تشكل فيما بينها تشكيلاً ذهنيًا على صعيد الدلالة، مثل عبارة: "الرجل إذا السماء لا عادة"، إذ تُرفض نتيجة الحس الفطري بعدم جريانها على نسق اللغة، وهي تحمل دلالات بالتبعية لكل مفردة فيها، لكنها لا تشكل معنى في النهاية.

3- حالة اللامعقول، وذلك عندما تكون العبارة متضاربة في معانيها، مثل عبارة: "يصرخ قوس قزح بصوت حنون"، و"يعتبر هوسرل هنا أن العبارة لا تحمل دلالة مرجعية تحيل إلى واقع حال متحقق، بالرغم من توفرها على دلالة مفهومية، وهي حاصل دلالات المفردات الدالة بالتبعية"[19]، وهي – حتمًا – ما يلحظ في اللغة الشعرية التي تتصف بعدم الإحالة، وبلامعقولية كثير من عباراتها نتيجة ارتكازها، بدرجة أساسية، إلى المجاز.

وقد بحثت علاقة اللغة بالأشياء لدى فوكو (Foucauld) فرأى أن المكان الذي تتلألأ فيه الأشياء "ليس هو الذي تراه الأعين وإنما هو المكان الذي يحدده تتابع التراكيب اللغوية"[20].

لا شك أن البحث الفلسفي الذي يسعى إلى تناول علاقة اللغة بالواقع لا يفكر سوى بوجود الأشياء وكينونتها في حالات متحققة فعلاً، وهو ينظر إلى اللغة على أنها تقوم بعملية استحضار وتمثيل، وتفكيره في اللغة ينطبع بتصور الفلاسفة عن مدى تمكن اللغة من فعل الاستحضار والتمثل، ومن ثمّ العني، الذي يُجسد من خلال قصدية المتكلم على إحداث عملية التمثل دونما التزام حقيقي بالطبيعة المرجعية للأشياء المتحققة، فاللغة – تبعًا لذلك – هي تمثيل ما في الذهن لا ما في الواقع.

ثالثًا: إشكالية المرجعية في إطار البحث النقدي:

إذا كان علم اللغة قد نظر إلى علاقة اللغة بالواقع من منطلق نظرته إلى اللغة على أنها تشكل نظامًا ونسقًا تجسد في نظام العلامة اللغوية الذي يقوم على طرفي الدال والمدلول دون الاهتمام بدرجة كافية بالمرجع الواقعي، وإذا كانت بعض مباحث الفلسفة قد اهتمت بهذه العلاقة من منطلق اهتماماتها بالبحث عن كينونة الأشياء، وعلاقة الإنسان بها، وكيف تتجلى في الذهن البشري من خلال عملية التمثل، وهي عملية ذهنية خالصة، فإن النقد الأدبي قد استفاد من كلا التصورين، كما يظهر لدى متابعة تصورات النقاد عن علاقة الخطاب الأدبي بالواقع، وملاحظة جدلية هذه العلاقة التي تظهر في إشكالية المرجعية.

ولعل المجال يضيق عن تتبع موقف النقد الأدبي من هذه الإشكالية عبر مراحل تطوره، وما أسفر عنه من مجال معرفي مستقل أصبح يعرف منذ أواخر الستينات في أوروبا بالنظرية الأدبية[21]، لكن أبرز اتجاهات هذه النظرية قد رسخت بشكل جذري، استنادًا إلى التصورات التي قدمت في علم اللغة وفي الفلسفة، العلاقة الجدلية بين اللغة والواقع في الخطاب الأدبي على وجه التعيين، فمنذ مطلع القرن العشرين كانت الحركات النقدية تنحو نحو الاهتمامات الشكلية مقصية الواقع ومعطياته بشكل يكاد يكون تامًا، سواء في حركة الشكلانيين الروس[22] أو النقاد الجدد[23]، وقد كانت البنيوية (Structuralism) أكثر تحيزًا في إثارة العلاقة الجدلية بين الخطاب والواقع، وتأكيدًا لإشكالية العلاقة المرجعية، فمدار اهتمامها ينحصر في أن الأدب هو تجسيد لبنية اللغة ذاتها، حيث يبدي العمل الأدبي صورة البنية المتكاملة (homological) (المتجانسة) مع اللغة نفسها[24]، ومن ثمّ سينظر إلى الأعمال الأدبية على أنها لا ترجع إلى العالم ولكن إلى كلمات أخرى، لأن اللغة لا يمكن أن تصل خارج نفسها إلى حقيقة ما وراء لغوية[25]، وتتجاوز البنيوية حدود العلاقة الإشكالية بين الأدب والواقع لتتحدث عن هذه الإشكالية في علاقة النص الأدبي بمؤلفه، فاستنادًا إلى رأي سوسير عن أنه لا وجود للأفكار قبل اللغة، ولا يمكن أن تتميز هذه الأفكار قبل ظهور اللغة[26]، ترى البنيوية أن المتكلم أو مؤلف النص الأدبي لا شأن له في إقامة المعنى، فهو متضمن في اللغة، "فليس هو الذي يقول بل المنظومة اللغوية هي التي تقول"[27]، وقد عبر بارت (Barthes) عن ذلك بوضوح في موقفه من علاقة الذات باللغة، فهو يرى أن الذات ليست امتلاء فرديًا، وأن اللغة ليست محمول الذات، بل إن اللغة هي الذات، ولذلك فالكتابة لا تقوم على الصفات الداخلية للذات ولكن على غيابها[28]، وذلك أن البنيوية تنقل اهتمامها من "مستوى المقاصد الذاتية إلى مستوى البنى اللغوية والسيميائية"[29]، ويتحقق ذلك في اهتمام البنيوية بالشعرية (Poetics) حيث تتجلى كما يرى ياكبسون (Jakobson) " في كون الكلمة لا تدرك بوصفها كلمة وليس مجرد بديل عن الشيء المسمى ولا كانبثاق للانفعال، وتتجلى

في كون الكلمات وتركيبها ودلالتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست مجرد أمارات مختلفة عن الواقع، بل لها وزنها الخاص وقيمتها الخاصة"[30].

وقد تغيرت نظرة النقد في مرحلة ما بعد البنيوية في "الاتجاه التفكيكي" (Deconstruction) و"نظرية التلقي" (Reception Theory) إلى النص الأدبي، فليس هناك نص مكتمل، كما أن الغاية من القراءة لم تعد الوصول إلى شيء أو أمر نهائي ومطلق؛ فالقراءة – كما يرى جاك دريدا (J. Derrida)– "لا يمكن أن تسمو بالنص إلى شيء آخر غيره، إلى مرجع (أو) حقيقة هي ميتافيزيقية، تاريخية، نفسية،...إلخ"[31].

لقد تمثلت أكثر الأفكار شهرة لدريدا في إنكار أن المعنى مجسم خارج اللغة، فهو أثر أو منتج اللغة[32]، وللغة القدرة والتمكن من أن تقول أكثر مما يقصد منها مستخدمها؛ لأن كل دال فيها لا يمكن أن يصل إلى مدلول نهائي أو ما يدعى بـ"المدلول الفائق" (The transcendental signified)[33]، وذلك يعني في المحصلة النهائية أن النص الأدبي لا يمكن أن يحيل إلى الواقع، وأن الاهتمام بالواقع في التعامل مع النص الأدبي هو عمل بائس لأن ما يقدمه النص الأدبي ينبغي أن يكون أكثر أهمية وغنى من الواقع نفسه.

وقد قدم اتجاه نظرية التلقي نظرة مشابهة لما ذهبت إليه التفكيكية نتيجة اهتمامه بدور القارئ في تحقيق قيمة النص، وأن النص الأدبي لا يقدم شيئًا مكتملاً دون نشاط القارئ، إذ إن متعة القارئ عند إيزر (Iser) تبدأ عندما يصبح هو نفسه منتجًا للنص، ويكون ذلك عندما يتيح له النص أن يحضر ملكاته وقدراته الخاصة لتقوم بدورها[34]، وهذا يعني أن النص الأدبي لا يمكن أن يحده الواقع الذي ولد فيه، فهو منفلت من أية ارتباطات سياقية، ولا شك أن ذلك يجعله بعيدًا عن أن يحيل إلى الواقع بشكل مباشر، إن هذه الرؤية لا يمكن أن تبقي على العلاقة الطبيعية للنص الأدبي بالواقع، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان النص منغرسًا في ظرفيته التاريخية لا يمكنه تجاوزها، وهو ما يتعارض مع توجهات اتجاهات ما بعد البنيوية عمومًا.

فهذه النظرة ترى أن الأدب مغلق عن العالم الخارجي، وهو غير مرجعي، فالأعمال الأدبية تتعلق بأعمال أدبية أخرى أو تحيل إليها، أو تحيل إلى نفسها[35].

ويشكل طرح إدورد سعيد عن دنيوية النص الأدبي (Secularism of Literary text) رؤية مباينة تمامًا، إذ يؤمن بأن النص الأدبي منغمس بالعالم، ويقرر سعيد بلهجة عالية الوثوقية مدى تجذر العلاقة بين النص الأدبي وسياقه الواقعي والتاريخي فيقول: "إن الشيء الأساسي هو أن النصوص لها طرق في الوجود بحيث إنها حتى في أسمى شكل لها تبقى دائمًا فريسة الوقوع في شراك الظرف والزمان والمكان والمجتمع- وباختصار فهي في الدنيا ولذلك فإنها دنيوية"[36].

إن موقف سعيد هذا لا يأتي ليؤكد أن اللغة الأدبية ينبغي أن تحيل إلى الواقع مباشرة، لكنها ترتبط بالرد على اتجاهات التأويل في نظرتها إلى أن الكتابة الأدبية توسع الفجوة بين الكلمات وما تحيل إليه، بخلاف الخطاب الشفاهي.

إشكالية المرجعية في شعر الحداثة:

تعكس اللغة في الخطاب الشعري الحداثي علاقة جدلية مع الأشياء والواقع، وذلك أن إصرار هذه اللغة على عدم كفاية اللغة العادية لتحقيق حضور الأشياء وتمثلها يجعلها تتجاوز كل العلاقات المعتادة التي تقوم عليها اللغة، وفي الوقت الذي تسعى فيه إلى تحقيق الواقع عبر لغة وصفت عادة لدى الشعراء بأنها قادرة على خلق الواقع لا تصويره، يلحظ أنها تنحاز إلى علاقات خاصة تشوه فيه صورة الواقع. وتحت تأثير هذه الرغبة في تجاوز الواقع باللغة في الشعر كثيرًا ما تضغط على الشعراء نصوص أخرى تدفع بهم إلى جعل لغتهم الشعرية لا تحيل إلى الواقع، ولكنها تحيل إلى هذه النصوص، مما يوقع اللغة في حالات أو دراجات كثيرة من اللامباشرة؛ أي عندما تصبح اللغة الشعرية لغة إشارية بحتة لها نسقها الخاص المفارق في كثير من الأحيان نسق اللغة المعتاد، عندها تكون اللغة الشعرية تسعى إلى خلق الواقع وتجاوزه في آن.

لقد تنبه النقاد إلى طبيعة لغة الأدب والشعر الحداثي، وكيف بدأت هذه اللغة تتخلى عن الإحالة إلى الواقع، خاصة تحت تأثير اهتمامات الأدب بالكتابة، فيشير بول ريكور (Paul Ricoeur) إلى "أن العبور من الكلام إلى الكتابة يضر بالخطاب بطرق أخرى عديدة، منها على الخصوص أن عمل المرجعية يُفسد بعمق عندما يستحيل إبراز الشيء الذي نتكلم عنه كمنتمٍ إلى الحالة المشتركة للمتحاورين"[37]، وقد حظي أدونيس بقسط واسع من اهتمام النقاد العرب، على هذا الصعيد، نظرًا لطبيعة لغته الشعرية التي لا يكاد يُختلف في أنها إشكالية تمامًا، فقد قيل "إن لغة أدونيس هي طريقته الخاصة في الاستجابة لإحساسه الخاص إزاء الوجود"[38]، وإذا كان هذا الرأي لا يختص بلغة أدونيس وحده، وإن كان الأبرز في ذلك، فإن ما يعطي هذا الحكم قيمة خاصة هو وعي أدونيس نقديًا بذلك كما تظهر آراؤه النقدية، فقد أشار إلى ذلك في غير موضع. ولتقصي هذا البعد في اللغة الشعرية في الشعر الحداثي عند أدونيس تحديدًا ينبغي متابعة الإطار المعرفي النقدي لتصور أدونيس لعلاقة الخطاب الشعري بالواقع، ثم تقصيه بقراءة نصوص شعرية في مجموعته "الأوائل".

- الإطار المعرفي النقدي لتصور أدونيس لعلاقة الخطاب الشعري بالواقع:

تنبئ مؤلفات أدونيس النقدية والتنظيرية بكثير من التصورات التي تجسد – من خلال مفهومه للشعر – نظرته إلى اللغة وعلاقتها بالواقع والعالم، ونظرته إلى ذات الشاعر في علاقتها مع اللغة.

يظهر الوعي النقدي لدى أدونيس في رفضه لاتجاهين رئيسيين في النقد العربي: الأول مدرسي "يعالج به الوقائع التي تتعلق بالأثر المنقود وحياة صاحبه، كما هي،... أما الاتجاه الثاني فيعطي دلالات لهذه الوقائع استنادًا إلى منظور إيديولوجي"[39]، وما يطلبه أدونيس هو الخروج عن الاتجاهين للاهتمام والكشف "في النص، عن نظام مترابط من الدلالات" وهو مما يؤكد "استقلالية النص" ليتم تناوله "كأفق، أو تحول، أو حقل"[40].

ويشير أيضًا إلى أن النقد بمثابة كتابة نص على النص الأصلي الأول، ولغة ثانية تمارس على لغة أولى، وبهذا يعتمد النقد على نوعين من العلاقات: علاقة لغة النقد بلغة النص الأصلي، وعلاقة لغة النص بالمجال الذي يتحدث عنه، هكذا يكون النقد كما يفهمه أدونيس، مؤكدًا "أن قوام النص الشعري ليس في ما يقوله بذاته، وإنما في نظام قوله"[41]، ويخاطب أدونيس الناقد فيقول: "وأنت، في هذا، لا تزعم أنك تكشف المعنى الأخير الكامل للنص، وتكتفي بكونك تقدم نسيجًا نقديًا يحتضن أعظم قدر من نسيج النص المنقود"[42]، ويجب على النقد أن يتناول في النص الشعري "نظامه القولي، أي بنيته الشكلية – الإيقاعية، (أي) موضوعيته، أو شيئيته كنص معطى للقارئ، ماثل أمامه موضوعيًا، ذلك أنه لا يلتمس معايير ثورية النص في محتواه، وإنما في نظامه التعبيري"[43]. وذلك يؤكد أن اهتمامات الناقد – كما يراها أدونيس- هي اهتمامات بنيوية خالصة، ولا شك أن ذلك يظهر رؤية خاصة مفادها فساد علاقة الشعر بالوقائع، ولا شك في مدى صلة هذا الفهم بطروحات النقد البنيوي في الغرب، وهو يُظهر بوضوح انفصال النص الشعري عن سياقاته التاريخية والاجتماعية...إلخ، إن هذا الوعي النقدي يظهر بشكل واضح لكل من يقرأ شعر أدونيس ليلحظ كيف يجافي هذا الشعر الوقائع، وكيف يقفز عن الواقع ليعبر كما يقول أدونيس عن: رؤيا كونية، تتجاوز الواقع إلى الخيال والرؤيا والكشف، فالكتابة الشعرية عند أدونيس "تؤسس تاريخها على الرغبة والانخطاف والرؤيا والكشف، أي على ما يخرق العادة"[44].

لقد قدم أدونيس جهدًا نقديًا واسعًا يكاد يكون منسجمًا بتمركزه حول مفهوم الحداثة، ويمكن استقراء الأساس المعرفي النقدي لفهم أدونيس للغة الشعر وعلاقتها بالواقع في ثلاثة محاور:

- المحور الأول: الدال والمدلول:

ينظر أدونيس إلى ثنائية الدال والمدلول من خلال وعيه بالكتابة الشعرية الحداثية، فتجسدت لديه بثنائية الشكل والموضوع، إذ يقول: "فالدال والمدلول، الشكل والموضوع"، في الشعر يولدان معًا. بمعنى آخر: لا موضوع في الشعر، بل تعبير، ولا حقائق مستقلة بذاتها، بل رؤى ووجهات نظر"[45]، فهذا التصور يظهر أن علاقة الدال بالمدلول في الشعر تقوم على الانسجام،

إذ يولدان معًا، لكن هذه الولادة تنزلق لحساب الدال؛ لأنه لا موضوع في الشعر، وغاية الأمر أن الكتابة الشعرية مرتبطة بالشكل الشعري، وهذا ما يجعلها لا تحفل بالحقائق الواقعية، وهذا الإصرار يؤكد انتفاء المرجعية الواقعية من الشعر عمومًا.

وفي الشعر تتغير اللعبة، إذ لا تعود اللغة مجرد وسيط بين البشر والعالم، لأن الكلمة (الدال) لم تعد في الشعر كما يقول أدونيس: "مجموعة متآلفة من الأصوات تدل، اصطلاحًا، على واقع أو شيء ما، وإنما هي صورة صوتية وحدسية، والعلاقة بين معناها ولفظها تقوم إما على اقتران الصوت بالشيء، وإما على اقترانه بالحدس"[46]، هذا الفهم ذو الصلة الواضحة بمفهومي الدال والمدلول على المستوى اللساني يؤكد أن الدلالة ترتكز على الحدس، وعبره يمكن للغة في الشعر أن تهدم الفجوة بين الكلمة والشيء، إذ تصبح اللغة "وسيلة لمحو الحدود كلها بين الإنسان والآخر، الإنسان والعالم"[47]، عندها "تزول الهاوية بين المعنى والمعنيّ، بين الكلمة والشيء"[48].

إذاً في الشعر لا تعود الاعتباطية قائمة بين الدال والمدلول، ليس لأن العلاقة بينهما أصبحت طبيعية تمامًا، ولكن لأن اللغة قد تخلت عن مرجعياتها ونسقها المعتاد من خلال ما يقوم به شعر الحداثة من "تشويش للكلمة ونظامها"[49]، هذا التشويش يهمش علاقة الدال بالمدلول في الكلمة ليبرز علاقة جديدة تظهر الكلمة وكأنها قد شحنت بدلالة جديدة؛ وفقًا لنسيج النص اللغوي ونسقه الشعري الذي يفرض رؤى خاصة، فيصبح الترابط شديدًا بين الرؤية ومرجعية الدوال في النص الشعري.

إن هذا حسبما يرى أدونيس يوسع مجال اللغة وحدود العالم في آن، وهو ما يجعل معرفة طبيعة الإحالة في الشعر تبرز كضرورة حتمية للتواصل مع اللغة الشعرية، كما أنها ضرورية لقراء الشعر، حيث سيكون بمقدور القارئ التعامل مع اللغة الشعرية وفق منطقها الجديد.

- المحور الثاني: الواقع الممكن والوجود الذهني

لقد بني مفهوم أدونيس لعلاقة الدال بالمدلول في جانب منه على الاقتران بالحدس، وفي تعبيرات أخرى كثيرة إشارات إلى الرؤيا والكشف وخلق عالم جديد في الشعر[50]، بحيث توجد أشياء لا وجود لها في الواقع لكن وجودها حصر على الذهن انطلاقًا من الواقع الفعلي، هذا ما يظهره قول أدونيس: "بدءًا من الواقع ينفتح الشعر على الممكن:... الإنسان واقع أكثر من الواقع. وليس واقعه اليومي إلا عتبة لدخول واقعه الممكن"[51]. هكذا تصبح العلاقة بين الحدس/الرؤيا والشيء/الواقع لا تقوم على علاقة الإحالة المعتادة في اللغة، وإنما هي مفارقة ومباينة تهدف إلى إيجاد واقع جديد عبر عنه بالواقع الممكن، الذي لا يحظى شأنه شأن المدلول

تمامًا سوى بوجود ذهني محض، لأنه مؤسس على حقيقة متجذرة داخل ذات الشاعر لا في الخارج، ومجسد في اللغة التي هي ليست سوى نشاط ذهني محض، لذلك فأدونيس يصر على أن القصيدة الحديثة تختلف عن القديمة في أنها "لا تحيل إلى معلوم شائع أو موروث، شأن القصيدة التقليدية، وإنما تحيل إلى مجهول، حاضر أو محتمل- ومهمة النقد أن يحاول اكتشافه"[52]. وهذا ما يجعل الشاعر يبتعد عن "العيني المباشر... كمن ينطلق من لا شيء، أو من غياب ما، أو كمن يعمل على تشويش الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال"[53].

إن محصلة هذا التصور تظهر أن المعنى الشعري هو معنى متمخض وناتج عن الكتابة الشعرية، ولا يمكن - والحالة هذه – أن يكون الواقع هو المبدأ المنظم للمعنى والمسؤول عنه، أو أن تحيل الكتابة إلى الواقع الكائن، وإنما إلى الواقع الممكن أي الذهني في لحظة الكتابة.

- المحور الثالث: الشعر واللغة:

يصر أدونيس بشكل واضح على أهمية الغرابة في لغة شعر الحداثة، لأن موضوع الشعر ليس هو الواقع أو الظواهر في العالم، ويرى أنه "إذا كان الشعر تجاوزًا للظواهر ومواجهة للحقيقة الباطنة في شيء ما أو في العالم كله، فإن على اللغة أن تحيد عن معناها العادي، ذلك أن المعنى الذي تتخذه عادة لا يقود إلى رؤى أليفة، مشتركة. إن لغة الشعر هي لغة الإشارة، في حين أن اللغة العادية هي اللغة الإيضاح. فالشعر هو، بمعنى ما، جعل اللغة تقول ما لم تتعلم أن تقوله"[54].

إن الإصرار على أن لغة الشعر هي لغة إشارية تظهر أن خصوصية اللغة الشعرية ترتبط بمرجعيتها، إذ تلغى ارتباطاتها الدلالية المعتادة وفقًا لطبيعتها الإشارية الجديدة. وبذلك تصبح اللغة الشعرية لغة خلق، والكلمة في الشعر تتجاوز المعنى المباشر إلى معنى أوسع وأعمق، و"تشير إلى أكثر مما تقول"[55].

إن ذلك يعني ببساطة أن المعنى الناجم عن هذه اللغة ليس معنى عاديًا، ولذلك سيلجأ الشاعر إلى مرجعيات جديدة يحيل إليها من خلال اللغة، وهذا ما يجعل مرجعية اللغة الشعرية تتسم بوضع إشكالي تمامًا، لأن الشعر – كما يرى أدونيس – "يخلق مسافة بين اللغة والواقع"[54]، وهذا يوضح كيف يعمل الشعر على تشويش نظام اللغة، ويمنحها أفقًا جديدًا ويوسع من مجالها وحدودها، والشعر – حينئذٍ – لا يتعامل مع اللغة على أنها مجرد أداة، وإنما هي مادته الأساسية، وعمله فيها لا بدّ أن يطال أساس نظام اللغة لوضعه في حيز آخر. وهذا ما سيتضح في استقصاء هذه الإشكالية من خلال الوقوف عند دوال بعينها وملاحظة فعل الشعر في اللغة.

توضح هذه الآراء في الشعر واللغة الشعرية أنه إذا كانت اللغة تبنى على علاقة إشكالية في علاقتها بالعالم والواقع، وتظهر جدلية واضحة في تصويرها للأشياء كما مرّ، فإن اللغة الشعرية تسعى إلى هدم الهوة بين اللغة والأشياء، من خلال البحث عن نسق جديد يغاير النسق المعتاد للغة، ويوجد واقعًا ذهنيًا وعالمًا جديدًا مختلفًا عن الواقع والعالم الحقيقي، وهو حصيلة اللغة؛ لأنه ليس في الشعر سوى اللغة، وإذا كان ذلك يمثل بالنسبة للشاعر الحداثي وسيلته لتحقيق ذلك، فإن القارئ يشعر بصعوبة بالغة، وتزايد في الوضع الإشكالي لعلاقة الدال اللغوي ومدلوله بما يحيلان إليه، ذلك كله يضع اللغة الشعرية في تصويرها العالم وفي علاقتها مع الأشياء في وضع إشكالي تمامًا، وتصبح اللغة طريقة الشعر في تجاوز منطق الأشياء والواقع، ومجال عمل الشاعر الذي به وفيه يصنع عالمًا خاصًا له أبعاده الخاصة ومنطقه الخاص، الذي لا يخضع سوى لرؤى أوسع من أن يتسع لها عالم الواقع. بذلك يحقق الشاعر ما يسعى من أجله دومًا وهو تجاوز الهوة بين الكلمات والأشياء بما يفرضه منطق اللغة الشعرية من واقع بديل (خلق عالم جديد)، هكذا تقوم الرؤيا الشعرية – كما يقول أدونيس – بـ"تشويش لنظام العالم الظاهر والحواس، (و) تشويش للكلمة ونظامها"[(55)].

إشكالية المرجعية اللغوية في مجموعة "الأوائل" الشعرية:

إن متابعة هذه الآراء عند أدونيس تعطي صورة كافية لفهمه للشعر، وما يثيره من علاقات مع الأشياء والعالم، وهو ما يتجلى فعليًا في شعر أدونيس، سواء في الإطار المعرفي الذي تبديه قصائده في مجموعته "الأوائل"، أم في سمة اللغة الشعرية التي تظهر مدى إشكاليتها عندما ترد إلى عالم الواقع.

تحمل المجموعة الشعرية عنوانًا دالاً، هو "الأوائل"، وإذا كان هذا العنوان يشهد امتدادًا واضحًا من خلال عناوين القصائد الشعرية التي يشملها، فإنه – أيضًا - يجسد رغبة الشاعر في الإمساك بكنه الحقائق وأصولها، سواء كانت أشياء ماثلة في واقع الحال، أم تصورات تعكس أشياء ماثلة في الذهن، أي ما بين الواقع الفعلي والوجود الذهني. وتظهر أول قصيدة في المجموعة الشعرية هذه الرغبة بشكل واضح مجسدة في الوقت ذاته إحساس الشاعر بالهوة التي تفصله عن الأشياء في العالم، وأن سعيه إلى الإمساك بها من خلال اللغة لا يجدي نفعًا، ليبقى تحقق هذه العلاقة مع العالم من خلال اللغة لا يبنى إلا على أساس الجدلية التي تظهرها إشكالية الإحالة في اللغة عمومًا، هذا ما يظهر في قوله:

أول الشيء
كيف أعطيك شكلاً
أيّهذا الصّديق الذي لا يزال يعاندُ؟ سمّيتك الشيءَ-

قلتُ: امتلكتكَ. لكنّك الآن تنفرُ، واسمك ينفرُ/ ماذا
أسمّيك؟
هذا مكانك؟ غيّرتَ نورَكَ أم أنني
لست نفسي؟ أأنا أنتَ؟ لكنّ ضوءكَ ما زال يَسْطعُ-
كاد الحريقْ
أن يجوسَ عروقيَ ملتهمًا كلماتي – مهلاً
أين، أنّى، وكيف أسمّيك، أعطيك شكلاً،
أيّهذا الصديقْ؟[56]

تشير لغة هذه العبارات إلى بُعدٍ معرفيٍّ يلخص رؤية الشاعر في كنه الشيء وحقيقته، ومحاولة التواصل معه والاستحواذ عليه بإعطائه اسمًا، وهذا يرتبط لدى أدونيس بـ"فكرة التوحد بين اللغة والوجود"[57]، وهي نابعة من الفكرة الدينية التي ربطت بين وجود الشيء واللغة كما جاء في الكتب السماوية: فقد جاء في الإنجيل: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله* هذا كان في البدء عند الله*.." [58]، وفي القرآن الكريم: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾[59]، غير أن معرفة كنه الشيء تواجه بالمعاندة والنفور، إذ لا تجسد العبارات الفجوة بين الشاعر/الإنسان والشيء وحدها، وإنما تشير إلى خاصية التحول التي يمتاز بها الشيء، وهذا يزيد من الفجوة بين الشاعر والشيء على الرغم من إحساسه بمدى تقاربهما كما يظهر من مخاطبته له بـ"أيهذا الصديق" ثم "أأنا أنت"، ويؤكد الخطاب الشعري أن الشاعر يسعى إلى محاولة الإمساك بالشيء وامتلاكه، لذلك يتساءل كيف يسميه، ويعطيه شكلاً؟ وذلك يعني أن الاسم لا يعطى إلى الشيء لوجود علاقة بينهما، وإنما لأن وعي الشاعر/الإنسان بالشيء هو ما يجسده في اللغة، أي تمثله للشيء ووعيه الذهني به هو ما يجسد في الاسم/الدال اللغوي، ولذلك يتساءل الشاعر: "أين، أنّى، وكيف أسميّك".

إن هذه الرؤية تبدو غريبة إذ تعكس إحساس الشاعر بقرب الشيء منه ونفوره في آن، ولا شك أن الغرابة تأتي من عدم القدرة على الوصول إلى المرجعية التي تحيل إليها اللغة الشعرية، فهي حتمًا لا تحيل إلى الواقع مباشرة، وإنما تستفيد من الرؤية الصوفية التي ترى في الأشياء حالات من التمرئي لحقيقة واحدة، بحيث تظهر بتشكيلات مختلفة باستمرار، وهذا ما تشير إليه لغة الشاعر في قوله: "هذا مكانك؟ غيرت نورك.."، فتغير النور إشارة إلى تغير الشكل/الصورة التي يتمرأى فيها الشيء. إن ذلك يؤكد الوضع الإشكالي للخطاب الشعري في علاقته بالواقع على الصعيد المعرفي الذي يفلسفه الشاعر، وعلى صعيد طبيعة اللغة الشعرية التي يقدمها، ليوحي

بهذه العلاقة الجدلية المبنية على الحقيقة الوجودية التي ينطوي عليها وجود الإنسان في هذا الكون وعلاقته معه.

ويبدو أن إزالة الغرابة عن لغة هذه القصيدة مرهونة بتحديد مرجعيات اللغة فيها، فالأخيلة الشعرية قد نسجت وفقًا لمرجعية صوفية كتلك التي قدمها ابن عربي عن وحدة الوجود، وأن الأشياء هي تجليات للحق الذي هو الخالق، فالحقيقة الوجودية عند ابن عربي "واحدة في جوهرها وذاتها، متكثرة بصفاتها وأسمائها، ولا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات، وهي قديمة أزلية لا تتغير وإن تغيرت الصور الوجودية التي تظهر فيها، فإذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هي الحق، ومن حيث صفاتها وأسماؤها أي ظهورها في أعيان الممكنات قلت هي الخلق، فهي الحق والخلق معًا"[60]، والكشف عن هذه المرجعية لا يظهر موضوع القصيدة بقدر ما يكشف عن الكيفية التي تشكلت فيها اللغة الشعرية بأخيلتها وصورها استنادًا إلى هذه المرجعية بما يكشف عن آلية عمل اللغة الشعرية.

إن ارتباط حقيقة الوجود بالتسمية تبرز على نحو آخر في قصيدة "أول التسمية"، حيث يقول:

سمّينا كلّ مكان سيفًا
وأخذنا نبني –
قمرًا من حوّار،
غابات رؤوسٍ،
وكواكب من ليل الأشلاء،
وأقمنا مملكة الأشياء[61].

فالنص يظهر أن وجود هذه الأشياء مرتبط بالتسمية، وأن إقامة "مملكة الأشياء" قد جاء حصيلة التسمية (اللغة)، وهكذا يقوم الوجود في اللغة، وهو كما يظهر النص وجود ذهني محض قد فقد صلته بالواقع، وهو ما يعني أن المرجعية الواقعية قد أفسد عملها، وغاية الشاعر من ذلك تكمن في توحد اللغة والوجود لأن كليهما نتاج عملية ذهنية، وإذا صح ذلك فلا شك في صلة هذا التفكير بما تفترضه البنيوية من مركزية اللغة في علاقتها مع الحقائق الإنسانية[62]، ولا شك – أيضًا- بوعي أدونيس بذلك.

إن متابعة هذه العلاقات في القصائد التي تضمها هذه المجموعة الشعرية تظهر هذه الرؤية بطريقة مدهشة للغاية، فالمنحى المعرفي لعلاقة اللغة الإشكالية بالواقع تظهر في قصائد: "أول الشعر"، و"أول الكتاب"، و"أول الكيمياء"، و"أول الشعر-2"، و"أول اللغة"[63]، وتُظهر –

أيضًا – أن الشعر هو وسيلة الشاعر لتجاوز الهوة الفاصلة بين اللغة والأشياء. ففي قصيدة "أول الشعر" يقول الشاعر:

أجمل ما تكون أن تُخلخلَ المدى
والآخرون – بعضهم يظنّك النّداءَ
بعضهم يظنّك الصّدى.
أجمل ما تكونُ أن تكون حجّةً
للنور والظّلامِ
يكون فيك آخر الكلامِ أوّل الكلامِ
والآخرون – بعضهم يرى إليك زبدًا
وبعضهم يرى إليك خالقًا
أجمل ما تكون أن تكون هدفًا
مفترَقًا
للصمتِ والكلامِ[64].

إن اللغة الشعرية – هنا – تسكن هذا الحياد، فهي تحيل إلى الأشياء وضدها، وبذلك فهي تخلخل علاقة الأشياء كما يمليه منطق وجودها، فهو يجمع بين النّداء والصدى، بين النور والظلام، آخر الكلام وأول الكلام، الزبد والخلق، الصمت والكلام. فاللغة الشعرية تحاول أن تتجاوز نسق اللغة الاعتيادي لأن إحساس الشاعر بوجود الأشياء لا يبدو اعتياديًا.

وإذا ما نظر إلى أن القصيدة تحمل عنوان "أول الشعر" تبين وفقًا لفهم أدونيس لعلاقة الشعر باللغة والعالم بأن الشعر يوسع مجال اللغة وحدود العالم، وبذلك تنكشف الأسس المعرفية التي تحيل إليها تراكيب مثل: "تخلخل المدى" إشارة إلى تغيير العالم، وأن يكون النداء والصدى، النور والظلام، فيه أول الكلام وآخر الكلام...إلخ، إشارة إلى تشويش نظام اللغة.

وفي قصيدة "أول الكتاب" تُظهر اللغة الإشكالية الحرجة فيما يخص المتكلم وموضوع الكلام (الشيء)، ويتساءل الشاعر: "تكلمتَ، أو يتكلم باسمك شيء؟"، وفي ذلك إشارة إلى ردم الهوة الفاصلة بين الكلمة والشيء في الشعر. وإذا كان ذلك كذلك فالكلام استعارة، والمجاز غطاء، والغطاء هو التيه، إذًا فالكلام تيه، والوجود لا يكون إلا به، كما يبدو من قوله:

تستعيرُ؟ المجاز غطاءُ
والغطاء هو التيه –
هذي حياتك تجتاحها كلماتُ[65]

فحياته أصبحت رهينة اللغة، وهذه الرؤية التي تعكسها هذه القصائد تأتي نتيجة إحساس الشاعر بأن اللغة مثقلة بتجربة الأجيال السابقة التي استخدمتها ورؤيتهم، وأن عمله يتطلب إفراغها من هذا المحتوى، وإعادة شحنها بطاقات جديدة(66)، وهو ما يعبر عنه في قصيدة "أول اللغة"، فيقول:

لم تعد هذه المدينةْ
أُفُقًا أو مدارًا
ينبغي أن نؤسس حتى نراها
ونرى أننا نراها،
نظرًا لا يزال جنينًا
لغةً لا تزال دفينةْ... (67)

فالقصيدة تشير بوضوح إلى الرغبة في تأسيس لغة جديدة، وما يلفت الانتباه الطريقة التي انبنت فيها اللغة الشعرية؛ ما بين "نؤسس حتى نراها" التي تشير إلى الرؤية، وهي تقترن مع جملة "نظرًا لا يزال جنينًا"، و"نرى أننا نراها" التي تشير إلى اللغة، وهي تقترن مع "لغة لا تزال دفينة"، وبذلك يكون تأسيس الرؤية الجديدة مقترن بتأسيس لغة جديدة، لأن كلتيهما نتاج عمل الذهن، ورغبة أدونيس في التغيير تظهر جلية أنها مرتبطة بفكرة أن التغيير لا يكون في الواقع، ولكن في الفكر، لأنه هو ما يؤسس الواقع وينظمه.

وإذا كان الشعر يمثل وسيلة الشاعر إلى تأسيس لغة جديدة، فإنه كذلك يمثل وسيلة المعرفة، وهو كشف ورؤيا، وقد عبر الشاعر عن ذلك في قصيدة "أول الشعر2" من خلال لفظة "عُري" الذي يكشف عن "جثث الكلمات"، فيقول:

... إنه العُرْيُ يكشف عن جثثِ الكلماتِ
إنّه الكونُ يذبلُ،
ضيّعتُ ناري
لغتي غيرُها
خطُواتي
لم تعد خطواتي. (68)

إن نسق اللغة الشعرية في هذه القصيدة يأتي منسجمًا مع تشكيل الرؤية الشعرية فيها، فجثث الكلمات إشارة إلى محمولات اللغة من الدلالات القديمة، وهو النسق المعتاد والمعروف للغة، وما دامت الكلمات جثثًا فمن الطبيعي أن يذبل الكون، ومعنى ذلك أن ذبول الكون هو ناتج عن موت

اللغة في قوله: "جثث الكلمات"، فالكلمات (اللغة) هي المسؤولة عن الكون، وهي ما تؤسسه لا العكس، وفي هذه الحالة لم يعد الشاعر قادرًا على الرؤية والكشف كما تشير عبارة "ضيعت ناري"، والرؤية والكشف هي ما تمهد للمستقبل القادم والتجدد (الخطوات الجديدة)، وعلى أساس ذلك لا تبقى مرجعية لفظة "النار" هي المرجعية الواقعية، وإنما هي متشكلة وفقًا لدلالاتها من ارتباطها عبر عمر البشرية بالمعرفة من جهة؛ فهي رؤية وكشف، ومرتبطة بأساطير البعث والتجدد كما سيتضح فيما يتلو لتشير إلى التقدم والتجدد، وهذه المرجعيات والدلالات المرتبطة بها هي ناتج تشكل النسق اللغوي للقصيدة الذي قرن ضياع النار بذبول الكون. وعلى أساس ذلك بنيت الجمل التالية: "لغتي غيرها" و"خطواتي لم تعد خطوتي"، ليقرن الشاعر اللغة بالفعل، ويقرن بين اللغة المغيَّرة الجديدة والخطوات الجديدة التي لم تعد كما كانت في الماضي، هكذا يكون في فكر أدونيس ووعيه أن الفعل ناجم عن اللغة، وأن الواقع في النهاية سيكون حصيلة اللغة، لأنها هي منظور الإنسان إليه، وهي ما تمثل وعيه به.

إن هذه الرغبة في تأسيس لغة جديدة هي ما تسم اللغة الشعرية بطبيعة خاصة، تجعلها متجاوزة لنسق اللغة المعتاد، وهو ما يبرز بخروجها عن الدلالة المرجعية الافتراضية، حيث لم تعد اللغة الشعرية تحيل مباشرة إلى الشيء أو المعطى الواقعي وفقًا للحالة الافتراضية المعهودة في لغة الاستخدام المعتادة، وإنما تؤسس اللغة الشعرية علاقات خاصة مع العالم والواقع، قادرة على استثارة نوعٍ خاصٍ من علاقات الإحالة، والتي من خلالها يتمكن متلقي هذا الشعر من بناء الدلالة، ويُنتج ذلك درجات لمجموع العلاقات التي يؤسسها الخطاب الشعري مع ما يقوله، ولعل ذلك يبرز بوضوح في العلاقات الأربع التالية:

1. **علاقة مفهومية شكلية غير مرجعية:** حيث تبدو الدوال متضاربة المعنى فيما بينها، وهي - كما جاء عند هوسرل – حاصل دلالات المفردات الدالة بالتبعية[69]. هذا ما تظهره كثير من العبارات الشعرية التي تظهر التمفصل الدلالي بين المفردات، حيث يعطل النسق الجديد الذي توضع فيه الدوال عملية الإحالات المعهودة للدوال اللغوية، وهذا المستوى يكاد يميز لغة شعر الحداثة إجمالاً، حيث تولّد اللغة الشعرية أنساقًا جديدة تُخرج الدوال عن مدلولاتها. هذا ما يبدو في عبارات مثل:

خرج الشعر طفلاً إلى الشرفة العربية، -

كانت الشمس تفتحُ

والريح تمسحُ أهدابه النبويهْ: [70]

فعبارة: "خرج الشعر طفلاً" لا تشير إلى مرجعية محددة، أو مرجعية جديدة فرضها نسق العلاقات بين الدوال، وإنما الدلالة ناجمة عن حاصل دلالات المفردات بالتبعية، حيث تشير العبارة

إلى جدة الشعر، كذلك الأمر مع عبارة: "الشمس تفتح" و"الريح تمسح.." و"الأهداب النبوية"، فهي تشير إلى أن الشعر كشف ورؤيا.

وقد تتجاوز قدرة النسق في خلخلة الدلالات المعتادة ذلك، وهو ما يبدو في النموذج التالي:

أدعوك إلى مائدتي
وتكون الشمس، يكون الماء، يكون العشب ضيوفًا
نتخاصم: أي رؤانا أعصف،[71]

فالتراكيب اللغوية في هذه الجمل الشعرية تخلخل بشكل واضح مرجعيات الدلالة المحددة، ويبدو أن هذا الفعل هو سبيل الشاعر إلى تجاوز الهوة التي تفصله عن العالم.

إن هذه السمة التي تمتاز بها اللغة الشعرية في شعر أدونيس هي ما تسمح بتفسير نصوصه استنادًا إلى الظن، حيث لا يمكن حسم الرأي بشأن دلالات التراكيب اللغوية حتى لدى أكثر القراء مهارة واقتدارًا[72]، ومن هنا يبدأ عمل التأويل.

2. **علاقة مرجعية غير معتادة:** حيث تحيل اللغة الشعرية إلى مرجعيات نصية أو أسطورية أو ثقافية...إلخ.

تظهر هذه العلاقة فيما تثيره اللغة الشعرية من علاقات تناص مع نصوص أخرى، حيث تحيل اللغة الشعرية إلى هذه النصوص بدلاً من الواقع، عندئذ تأخذ الدوال بالتخلي عن مرجعياتها المعتادة لتحيل إلى مرجعيات جديدة دونها يفقد الشعر دلالته الخاصة، ولعل هذا البعد يتضح، تمامًا، عند متابعة حضور دال: "النار"، إذ لا يمكن فهم النصوص والعبارات الشعرية دون معرفة المرجعيات التي يحيل إليها.

لقد تكررت كلمة "النار" وما يرتبط بها دلاليًا، مثل: "الحريق" و"الجمر" والشرر" و"الرماد" و"اللهب" و"شظايا" و"تنطفئ" و"تشتعل" أربعًا وعشرين مرةً، تظهر دلالاتها كيف تفرغ من ارتباطاتها المرجعية الواقعية، وتشحن بمدلولات جديدة لاستنادها وإحالتها إلى مرجعية أسطورية، فقد أصبحت "النار" تدل على الحياة في قوله:

والمجاز انتقالٌ
بين نار ونارٍ
بين موت وموتٍ. [73]

لقد ظهر أن نسق اللغة الشعرية في قصائد هذه المجموعة يقوم على الاقترانات غير المعتادة بين عباراتها، وقد وضح أن رؤية أدونيس ترى أن "قوام النص الشعري ليس في ما يقوله بذاته، وإنما في نظام قوله"[74]، وعلى أساس ذلك فإن "النار" تدل على الحياة لأنها مقترنة بالموت، وهذه الدلالة تحددها المرجعية التي يحل إليها الشاعر وهي أسطورة الفينيق، والموت هنا سبيل إلى حياة جديدة، فهو تجاوز وعبور، وهذا يتفق مع ما أشار إليه الشاعر في قوله: "المجاز انتقال". وتحيل لغة أدونيس إلى هذه المرجعية بلغة إشارية أكثر وضوحًا في قصيدته "أول الموت":

يصعد الموت في درجٍ – كتفاهُ
بجعٌ وامرأهْ
ينزل الموت في درج – قدماه
شررٌ، وبقايا
مدنٍ مطفأهْ –
والفضاء الذي كان أجنحةً، يتمادى
تمادى... [75]

فكثير من الدوال التي وردت في العبارات الشعرية لا تحيل مدلولاتها إلى الأشياء كما هو في أصل اللغة، فالصعود في درج، والنزول في درج، يشيران إلى بروج التحول كما سماها أدونيس[76]، قاصدًا ما عرف في أسطورة الفينيق كيف يصنع هذا الطائر محرقته في مكان مرتفع، ليتحول رمادًا ثم يخرج من الرماد تارة أخرى في ولادة جديدة[77]، ومن هذه المرجعية تتولد الإشارات الأخرى: فالبجع إشارة إلى الطائر، والمرأة إشارة إلى الخصب، وشرر إشارة إلى الحريق، ومطفأة إشارة إلى الرماد، والفضاء الذي كان أجنحة، يتمادى تمادى إشارة إلى الولادة الجديدة.

لقد أصبحت "النار" مرتبطة بالولادة والخصب، وهو ما يظهر في نصوص أخرى عدة. وما يلفت الانتباه أن أدونيس يسلب المطر دلالة الخصب، فحين يفشل تُخصب النار، من هنا جاءت عبارات مثل:

كيف لا يغمر الماء هذي الحفر؟
مطرٌ عاشق، - لوسألنا:
كيف لا يغسل الماء هذا الثمر –
أتراه يجيب الشجرْ؟
ربما، ربما... [78]

ففي هذه الحالة يزيح الشاعر لفظة "النار" عما تحيل إليه من مرجعية في أصل الوضع اللغوي، لتشير إلى دلالة أخرى من خلال إحالتها في شعر أدونيس إلى أسطورة الفينيق، وبذلك يُفهم قوله في قصيدة "أول الجنس":

كانت النار تزرع، والليل يجني... [79]

وإذا كانت اللغة الشعرية مراوغة في هذه العبارة، إذ تظهر نتيجة لإحالتها إلى المرجعية الأسطورية شبكة دلالية مركبة، فالقصيدة تحمل عنوان "أول الجنس"، والجنس مرتبط بالخصب في ذاته، والنار في هذه الحالة يمكن أن تفسر على أنها إشارة إلى تأجج المشاعر الجنسية التي سيجني الليل ثمرها، لكن ذلك كله يمكن النظر إليه أيضًا على نحو آخر عندما يكون الجنس هو حصيلة مترتبة على الخصب الذي يضمن الاستمرارية، وتصبح الدلالة المركزية في القصيدة مرتبطة بعبارة "النار تزرع"، ويشير الليل في هذه الحالة إلى حالة الركود أو "الموت" أو"الرماد" الذي سيجني ثمر ما تزرعه النار، هكذا يكشف تحديد المرجعية عن كيفية عمل اللغة الشعرية، وكيف ينسج الشاعر لغته خياليًا، وهو ما يمكّن من تأسيس طريقة لقراءة هذا الشعر.

وهذه المرجعية هي ما تظهر في قصيدة "أول الفضاء" عندما يقول:

جسد الأرض يستنبئ النار[80]

فالإشارات اللغوية في نسقها النصي تظهر أن دلالة النار والحريق مرتبطة بالخصب. ويلفت الانتباه – أيضًا – أن أدونيس يوحد بين فعل النار وفعل الشعر، فيقول في قصيدة "أول الطريق2":

ورأى

وجه النار، ووجه الشعر - طريقًا[81]

فإذا كانت النار وسيلة تجدد الفينيق فإن الشعر هو وسيلة التجدد في العالم، وكما أن للنار القدرة على الكشف، فإن الشعر –أيضًا- هو كشف ورؤيا، وهذا ما يبرز قيمة الشعر وطبيعة عمله في اللغة ذاتها من أجل العالم/الوجود، فالشعر باللغة يخلق عالمه الخاص، وعلى أساس ذلك يتبع الفعل اللغة وليس العكس.

3. علاقة جديدة تفترض مرجعية ذاتية يقررها النص الشعري:

وتتشكل المرجعية الذاتية من تكرار الشاعر لمفردة لغوية في نسق معين يعمل على إنتاج دلالة مباينة للمعهود، لتشير إلى مرجعية خاصة غير معتادة، ومن نماذجها البارزة في شعر أدونيس استخدامه لفظة "الجرح"، إذ تشهد حضورًا لافتًا في نصوص هذه المجموعة الشعرية، فقد تكرر

حضورها وما تعلق بها من دوال مثل: "الدم" و"الذبيحة" و"النزيف" و"الشريان" و"العروق" خمسة وعشرين مرة. وللفظة "الجرح" حضور ذو دلالة في شعر أدونيس عمومًا، وقد أشار كمال أبو ديب إلى أن استخدام أدونيس للفظة الجرح يرتفع "إلى مستوى الرمز الذي يستقي مقومات تشكله من تعامل الشاعر الفرد مع المفهوم – اللغة، من جهة، والبنية الثقافية – الاجتماعية الكلية، كما تتجلى في تمثل الشاعر الفرد لها"[82].

إن المرجعية التي تشير إليها لفظة الجرح كثيرة متعددة، مثل: التضحية والفداء والألم وأحيانًا الموت، لكن ورودها في شعر أدونيس قد ارتبط بالخصب والنماء[83]، وتنجم هذه الدلالة عن مرجعية معروفة في الشعر لكونها تشير إلى فض البكارة[84].

تظهر الدلالة هذه المرجعية في قصيدة "أول العشق"، إذ يقول:

قرأ العاشقون الجراح/كتبنا الجراحْ
زمنًا آخر، ورسمنا
وقتنا:
وجهيَ المساء، وأهدابك الصباحْ
وخطانا دمٌ وحنينٌ
مثلهم[85]

فقراءة العاشقين الجراح تنتج زمنًا آخر عبر فعل الكتابة، وهذه المرجعية ستعمل على فرض دلالة خاصة متشابكة على صعيد الإحالة والمرجعية لفعلي القراءة والكتابة، فمن جهة سيصبح فعل الكتابة مماثلاً لفعل المضاجعة، وفعل القراءة مماثلاً لفعل الولادة، ومن جهة أخرى فعل الكتابة يرتبط على نحو ما بالخصب والخصوبة في الإنتاج وما إلى ذلك، كذلك فعل القراءة، إذ كثيرًا ما يتم الحديث عن القراءة الخلاقة والمنتجة ودلالات أخرى باتت معروفة تمامًا فيما عرف في نظرية الأدب باتجاهات القراءة.

إن هذه الدلالة تظهر - وفقًا لهذه المرجعية المتشابكة – في قصيدة "أول الطريق1" و"أول الطريق2"، وتتأكد هذه الدلالة في الجملة الأخيرة من القصيدة الثانية التي تساوي بين فعل الشعر وفعل النار[86].

واللافت للانتباه في استخدام أدونيس للفظة "الجرح" الاقتران الذي يقيمه بين فعل الجرح وفعل النار كما جاء في قصيدة "أول الاجتياح":

لهبٌ يتغلغل في جثة الأرض
نستأصل العائلة
ونقيم الصداقة
غنوا
للشقوق التي تجرح الأرض
هذا زمن يتفتت
غنوا
كهجوم الفجيعةْ[87]

فنسق اللغة الشعرية في هذه القصيدة يُظهر حالات الاقتران السابقة، ويستحضر دلالاتها ومرجعياتها، فإحراق جثة الأرض هو إيذان ببدء حياة جديدة، هذه الدلالة لا تقررها اللغة الشعرية على نحو مباشر، لكن المرجعية التي تحيل إليها اللغة من خلال لفظة "النار" هي ما تشير إلى ذلك، بالاستناد إلى مرجعية "أسطورة الفينيق". والحياة الجديدة ستقوم بإزالة العالم القديم وأنساقه التي قررها سابقًا، وهو ما يفسر قوله: "نستأصل العائلة" إشارة إلى زوال الأنساق الاجتماعية التي تأسس عليها العالم القديم، ليقيم علاقة جديدة هي الصداقة، عندئذ سيكون جرح الأرض يستوجب الغناء والفرح لأنه إيذان ببدء عالم جديد وحياة جديدة على أنقاض حياة سابقة، ولذلك كان الغناء في نهاية القصيدة كهجوم الفجيعة، فالجرح هنا يحمل دلالة إيجابية. وهذا يظهر كيف أن دلالة اللغة الشعرية تحددت وفقًا لنسق اللغة الشعرية الجديد لا وفقًا لنسق اللغة المعتاد، الذي ارتبط بمرجعياته العادية.

وتكتسب لفظة "دماء" دلالة مماثلة لتشير إلى الحياة الجديدة، كما يظهر في قصيدة "أول الحياة":

في نسيج الإباده
من سماء بلا مطر
كان يأتي،
في دماءٍ تتوِّجه كان يمشي
ويقول المدى، ويقول الولادةْ... [88]

إن هذه النماذج تكشف عن فعل الشاعر في اللغة، وتظهر أن الرؤية التي يجتهد الشاعر في أن يقدمها تتجاوز حدود الواقع، وتؤسس وجودها على أساس أنها لغة خاصة فقدت فيها الدوال صلتها بما تحيل إليه في أصل الوضع اللغوي.

4. **علاقة مرجعية تقام على أساس التجربة الشعرية للشاعر ذاته**، بحيث لا تحيل الدوال إلى مرجعية أسطورية أو تراثية، وإنما إلى شعر الشاعر ذاته، فبعض قصائد هذه المجموعة تحيل إلى تجربة أدونيس الشعرية وقاموسه الشعري، ذلك ما يبدو من خلال حضور اسم "مهيار" في قصيدة "أول الكيمياء" و"أول العهد" و"أول الحنين"، إذ يتضح أن الإحالة هنا ليست إلى شخصية مهيار كما عرفت في التراث بقدر ما تحيل إلى مهيار الدمشقي في ديوان أدونيس المعروف "أغاني مهيار الدمشقي"، ذلك ما يبدو بوضوح عندما يقول في قصيدة "أول العهد":

أين صارت أغانيك، مهيار، أين؟[89]

كذلك يحيل أدونيس إلى شعره من خلال حديثه عن "زهرة الكيمياء" عندما يقول في قصيدة "أول الكيمياء"

مرحبًا، زهرة الكيمياء
نحن، هذا الصباح، شقيقان – ندان،
والكون فينا سواءٌ [90]

إذ تحيل العبارات الشعرية هنا إلى قصيدته "زهرة الكيمياء" في ديوان "كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار"، ويبدو أن ثمة شبكة دلالية ترتبط بزهرة الكيمياء القديمة، فهي تشهد امتدادًا في قصائد هذه المجموعة في حديثه عن "الوردة الأولية"[91] و"زهرة الأقحوان"[92]، فزهرة الكيمياء القديمة ترتبط بـ"حلم الكيمياء القديمة في محاولتها لتحويل المواد الخسيسة إلى مواد ثمينة"[93]، وهي مرتبطة في جملة القصيدة بأسطورة الفينيق، حيث تشير إلى التحول من الشيخوخة إلى الولادة الجديدة، ويظهر تركيز الشاعر على لفظة "الزهرة" في قصيدة "مرآة خالدة" من ديوان "المسرح والمرايا"[94]، التي ترمز إلى الحياة والعناصر التي تشكل منها الكون حسب الفلسفات القديمة[95]، وهذه الإشارات جميعها هي التي تبرر النسيج اللغوي لقصيدة "أول الكيمياء"، وكم يبدو من الواضح أن الإحالة فيها إلى تجربة الشاعر الذاتية ومسيرته الشعرية كما توحي عبارة "مرحبًا، زهرة الكيمياء".

إن الاقترانات الدلالية التي أوجدت سياقات خاصة قد عدلت في نسق اللغة المعتاد لتقدم لغة شعرية مفعمة بالمحمولات الدلالية ذات الإحالات المتعددة، وهو ما يظهر سرّ خصوصية اللغة الشعرية في هذه المجموعة، وفي شعر أدونيس، ثم في شعر الحداثة إجمالاً. فاللغة الشعرية أصبحت تقبع تحت وطأة الذات الشاعرة ورغبتها في السيطرة على موجودات الكون، وإذ تظهر

النصوص الشعرية الحداثية حساسية خاصة إزاء الكون، فإن اللغة المعتادة باتت غير قادرة على حمل عبء هذه الرؤية، ولذلك لوحظ توجه الشعراء نحو طرق التعبير عند الصوفية، لا لأنهم صوفيون، ولكن لأن اللغة الصوفية وحدها القادرة على إثارة الإحساس بالكون بطريقة الكشف والرؤية التي تتجاوز المادي والمحسوس، فكان من الطبيعي أن تتشكل اللغة الشعرية على هذا النحو الذي يخرق عمليات الإحالة والمرجعيات الواقعية المعتادة.

وختامًا لا بدّ من الإشارة إلى أن هذه الدراسة إنما سعت إلى أن تقرر بعض جوانب الشعرية في خصوصيتها اللغوية كما تظهر في شعر الحداثة، وإظهار الأساس المعرفي والنظري الذي دفع إلى تبني هذه الطريقة في الصياغة والنسج، لتأتي اللغة الشعرية مجسدة لأسس معرفية نظرية كانت حصيلة معرفة نقدية في الأساس، شكل أدونيس عبر مسيرته الشعرية والتنظيرية الطويلة أساس تجربة الشعر العربي الحديث إجمالاً، ولعل مما أُريدَ إيضاحه كيفية التعامل مع هذه اللغة وفقًا لهذه المنطلقات المعرفية والنظرية مباشرة أو خفية، ليشكل ذلك جزءاً من الكفاية الأدبية لدى القارئ حينما يقدم على قراءة هذا الشعر.

Critical awareness and the lingual referential problematic areas in modernized poetry in the collection of Adonis' primary collection as a cases study

Sami Ababneh, *Arabic Dept ., Jadara University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This research studies the linguistic problematic areas in the poetry of Adonis which represents one of the remarkable models in modernized poetry; it investigates the relationship between the semantics and the reference and links this problematic area with critical awareness and knowledge that Adonis possess in theoretical poetic writing which influenced his poetic language.

This research reveals this problem through three criteria; the linguistic, philosophical and critical research.

The research also shows the critical awareness of the nature of the relationship between the semantics and its referential in Adonis' ideas about poetic writing. Analytic study is conducted on this problematic area in his "AL-Awael" collection in an attempt to discover the effect of poetry in language in some of his texts collection and how poetry plays a role in the fluctuation of the relationship between semantics and its referential in the studied texts.

قدم البحث للنشر في 2008/1/14 وقبل في 2008/6/29

الهوامش:

(1) انظر كولر، جوناثان، "الكفاءة الأدبية"، ترجمة: علي الشرع، **مجلة نوافذ**، النادي الأدبي الثقافي جدة، ذو القعدة، 1420هـ - 2000، ع 11، (63).

(2) سوسير، فرديناند دي، **علم اللغة العام**، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، بيت الموصل، ط2، 1988، ص134.

(3) المرجع السابق، ص139.

(4) المرجع السابق، ص139.

(5) عبابنة، سامي، **اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث**، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2004، ص230.

(6) مونان، جورج، **مفاتيح الألسنية**، عربه الطيب البكوش، منشورات سعيدان، سوسة، 1994، ص 41.

(7) Tallis, Raymond, *Not Saussure, Acritique of Post-Saussurean Literary Theory*, Macmillan Press, London , second edition, 1995, p48.

(8) تشومسكي، نعوم، **آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن**، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، ص148.

(9) غاليم، محمد، **المعنى والتوافق مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي**، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، 1999، ص55.

(10) بناني، عز العرب لحكيم، **الظاهراتية وفلسفة اللغة تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية**، أفريقيا الشرق، المغرب، 2003، ص19.

(11) المرجع السابق، ص49.

(12) المرجع السابق، ص48.

(13) المرجع السابق، ص49.

(14) المرجع السابق، ص62.

(15) المرجع السابق، ص82.

(16) فريجه، جوتلوب، **المعنى والمرجع**، في: **المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث**، ترجمة وتعليق عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، ط2، 2000، ص107.

(17) هكذا ورد تفسير مرجع العبارتين عند فريجه، المرجع السابق، ص109. في حين نعرف جميعًا أن النجم الذي يظهر صباحًا ومساءً هو كوكب الزهرة.

(18) بناني، عز العرب لحكيم، **الظاهراتية وفلسفة اللغة تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية**، ص87.

(19) المرجع السابق، ص137.

(20) فوكو، ميشيل، **الكلمات والأشياء**، ترجمة مطاع صفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1989-1990، ص34.

(21) سعيد، إدوارد، **العالم والنص والناقد**، ترجمة عبد الكريم محفوض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000،ص7.

(22) Bertens, Hans, *the basics literary theory*, Routledge, London and New York, first published, 2001, p 40.

(23) المرجع السابق، ص 21.

(24) Culler, Jonathan. *Structuralist Poetics, Structuralism, Linguistics and the Study of Literature* , Routledge , London , 1994,p 96.

(25) Tallis, Raymond, *Not Saussure*, p15.

(26) سوسير، فرديناند دي، **علم اللغة العام**، ص131.

(27) عبابنة، سامي، **اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث**، ص232.

(28) بارت، رولان، **نقد وحقيقة**، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء لحضاري، حلب، ط1، 1994، ص108.

(29) ريكور، بول، **الوجود والزمان والسرد**، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999، ص274.

(30) ياكسبون، رومان، **قضايا اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1988،ص 19.

(31) Tallis. Raymond, *Not Saussure*, p28.

(32) المرجع السابق، ص 15.

(33) المرجع السابق، ص90.

(34) Iser, Wolfgang, *The Act of Reading, Atheory of Aesthetic Respanse*, Translation of Der Akt des Lesens, Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, second printing, 1981, p108.

(35) Tallis. Raymond, *Not Saussure*, p47.

(36) سعيد، إدوارد، **العالم والنص والناقد**، ص41.

(37) ريكور، بول، **من النص إلى الفعل أبحاث التأويل**، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001، ص86.

(38) الشرع، علي، **لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث**، منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك، 1991، ص47. وانظر ما يقوله صلاح فضل في **أساليب الشعرية المعاصرة**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص249.

(39) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **زمن الشعر**، دار الساقي، بيروت، ط6، 2005، ص66.

(40) المرجع السابق، ص66-67.

(41) المرجع السابق، ص67.

(42) المرجع السابق، ص67.

(43) المرجع السابق، ص68.

(44) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **فاتحة لنهايات القرن**، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1998، ص259.

(45) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **مقدمة للشعر العربي**، دار الفكر، بيروت، ط5، 1406هـ-1986م، ص109.

(46) المرجع السابق، ص127.

(47) المرجع السابق، ص137.

(48) المرجع السابق، ص138. وانظر ما يقوله أدونيس في كتابه: **موسيقى الحوت الأزرق**، دار الآداب، بيروت، ط1، 2002، ص38.

(49) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **مقدمة للشعر العربي**، ص139.

(50) انظر: المرجع السابق، ص119. وأدونيس (علي أحمد سعيد)، **زمن الشعر**، ص15. وأدونيس، **موسيقى الحوت الأزرق**، ص26.

(51) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **مقدمة للشعر العربي**، ص119.

(52) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **فاتحة لنهايات القرن**، ص259.

(53) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **زمن الشعر**، ص52.

(54) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **مقدمة للشعر العربي**، ص126.

(55) المرجع السابق، ص126-127.

(54) أدونيس، **موسيقى الحوت الأزرق**، ص33-34.

(55) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **مقدمة للشعر العربي**، ص139.

(56) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، دار العودة، بيروت، ط5، 1988، ص453.

(57) الشرع، علي، **لغة الشعر العربي المعاصر**، ص46.

(58) **الكتاب المقدس**، إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الآيات (1-3).

(59) **القرآن الكريم**، سورة الأنعام، آية (47).

(60) الحفني، عبد المنعم، **الموسوعة الصوفية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2003م-1424هـ، ص405.

(61) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص482.

(62) بياجيه، جان، **البنيوية**، ترجمة عارف منيمة وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ط4، 1985، ص63.

(63) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، الصفحات على الترتيب: 456، 457، 459، 462، 463.

(64) المرجع السابق، ص 456.

(65) المرجع السابق، ص 457.

(66) انظر هذه الفكرة لدى: الشرع، علي، **لغة الشعر العربي الحديث**، ص49. كما تظهر في آراء أدونيس التنظيرية والنقدية في مؤلفات عدة، انظر: أدونيس، **مقدمة للشعر العربي**، ص125، **وزمن الشعر**، ص60، **وفاتحة لنهايات القرن**، ص295.

(67) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص463.

(68) المرجع السابق، ص 462.

(69) بناني، عز العرب لحكيم، **الظاهراتية وفلسفة اللغة**، ص137.

(70) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص465.

(71) المرجع السابق، ص464.

(72) انظر وقوف علي الشرع عند قصيدة "أول الطريق1" و"أول الطريق2" في كتابه: **بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1987، ص95.

(73) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص457.

(74) أدونيس (علي أحمد سعيد)، **زمن الشعر**، ص67.

(75) المرجع السابق، ص475.

(76) انظر قصيدة أدونيس: "أيام الصقر" في **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج1، ص455.

(77) فولر، أدموند، **موسوعة الأساطير الميثولوجيا اليونانية الرومانية الاسكندنافية**، ترجمة حنا عبود، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1، 1997، ص178.

(78) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص479.

(79) المرجع السابق، ص469.

(80) المرجع السابق، ص472.

(81) المرجع السابق، ص485.

(82) أبو ديب، كمال، "الواحد /المتعدد البنية المعرفية والعلاقة بين النص والعالم"، **فصول**، مج15، صيف 1996، ع2، ص48.

(83) انظر قصيدة أدونيس "الجرح" في ديوان أغاني مهيار الدمشقي"، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج1، ص280.

(84) انظر: ماركيه، جان- فرانسوا، **مرايا الهوية الأدب السكون بالفلسفة**، ترجمة كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2005، ص284.

(85) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص466.

(86) تنكشف هذه الدلالات بوضوح في: الشرع، علي، **بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس**، ص94-96.

(87) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص491.

(88) المرجع السابق، ص488.

(89) المرجع السابق، ص460.

(90) المرجع السابق، ص459.

(91) المرجع السابق، ص489.

(92) المرجع السابق، ص455.

(93) الشرع، علي، **بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس**، ص65.

(94) أدونيس، **الأعمال الشعرية الكاملة**، مج2، ص180.

(95) الشرع، علي، **لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث**، ص68.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس.

أدونيس، علي أحمد سعيد. (1988). **الأعمال الشعرية الكاملة**، دار العودة، بيروت، ط5.

أدونيس، علي أحمد سعيد. (2005). **زمن الشعر**، دار الساقي، بيروت، ط6.

أدونيس، علي أحمد سعيد. (1998). **فاتحة لنهايات القرن**، دار النهار للنشر، بيروت، ط1،.

أدونيس، علي أحمد سعيد. (1406هـ-1986م). **مقدمة للشعر العربي**، دار الفكر، بيروت، ط5.

أدونيس، علي أحمد سعيد. (2002). **موسيقى الحوت الأزرق**، دار الآداب، بيروت، ط1.

ثانيًا: المراجع العربية:

أبو ديب، كمال. (1996). "الواحد /المتعدد البنية المعرفية والعلاقة بين النص والعالم"، **فصول**، مج15، ع2.

بناني، عز العرب لحكيم. (2003). **الظاهراتية وفلسفة اللغة تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية**، أفريقيا الشرق، المغرب.

الحفني، عبد المنعم. (2003م-1424هـ). **الموسوعة الصوفية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1.

الشرع، علي. (1987). **بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

الشرع، علي. (1991). **لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث**، منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك.

عبابنة، سامي. (2004). **اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث**، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1.

غاليم، محمد. (1999). **المعنى والتوافق مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي**، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط.

فضل، صلاح. (1998). **أساليب الشعرية المعاصرة**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

ثالثًا: المراجع الأجنبية المترجمة:

بارت، رولان. (1994). **نقد وحقيقة**، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء لحضاري، حلب، ط1.

تشومسكي، نعوم. (د.ت). **آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن**، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1.

ريكور، بول. (1999). **الوجود والزمان والسرد**، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1.

ريكور، بول. (2001). **من النص إلى الفعل أبحاث التأويل**، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1.

سعيد، إدوارد. (2000). **العالم والنص والناقد**، ترجمة عبد الكريم محفوض، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

سوسير، فردينان دي. (1988). **علم اللغة العام**، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، بيت الموصل، ط2.

فريجه، جوتلوب. (2000). **المعنى والمرجع**، في: **المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث**، ترجمة وتعليق عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، ط2.

فوكو، ميشيل. (1989-1990). **الكلمات والأشياء**، ترجمة مطاع صفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت.

فولر، أدموند. (1997). **موسوعة الأساطير الميثولوجيا اليونانية الرومانية الاسكندنافية**، ترجمة حنا عبود، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1.

كولر، جوناثان. (1420هـ - 2000). "الكفاءة الأدبية"، ترجمة: علي الشرع، **مجلة نوافذ**، النادي الأدبي الثقافي جدة، ذو القعدة، ع11.

ماركيه، جان- فرانسوا. (2005). **مرايا الهوية الأدب السكون بالفلسفة**، ترجمة كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1.

مونان، جورج. (1994). **مفاتيح الألسنية**، عربه الطيب البكوش، منشورات سعيدان، سوسة.

ياكسبون، رومان. (1988). **قضايا اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط.

رابعًا: المراجع الأجنبية غير المترجمة:

Bbertens, Hans. (2001). *The Basics Literary Theory*, Routledge, London and New York, first published.

Culler, Jonathan. (1994). *Structuralist Poetics, Structuralism, Linguistics and the Study of Literature* , Routledge , London.

Iser, Wolfgang. (1981). *The Act of Reading, Atheory of Aesthetic Respanse*, Translation of Der Akt des Lesens, Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, second printing.

Tallis, Raymond. (1995). *Not Saussure, Acritique of Post-Saussurean Literary Theory*, Macmillan Press, London , second edition.